القدماء والمحدثون
عند العرب

لا نريد هنا أن نتبع تقسيم الأدباء لشعراء العرب إلى جاهلى ومخضرم وإسلامى ومحدث، وإنما نريد أن ندرس تحت هذا العنوان ما أدرك الشعر العربى من الأطوار والانتقال من حال إلى حال، لنعرف إن كان هناك خلاف ظاهر، أو مذاهب بلاغية أو كتابية فى الشعر العربى أثناء مروره بالعصور المختلفة.

إذا تتبعنا حركة النقد الأدبى عند العرب وجدنا أن الباعث على الاشتغال بالأدب والعناية بجمع أشعار العرب، هو القرآن الكريم والمحافظة على لغته التى هى العربية الفصحى الصحيحة. ولم يظهر الإسلام دينًا محمديًا فقط، بل ظهرت دينًا عربيًا، جاء بكتاب عربى مبين. فنهض المسلمون نهضة دينية، ودفعهم إيمانهم بكتابهم وإخلاصهم له إلى دراسة العلوم والفنون المختلفة، ولا سيما علوم اللغة والأدب لفهم القرآن وإدراك أسراره، وتأييد معجزته الإلهية، واهتموا بذلك اهتمامًا فاق كل اهتمام. فجمعوا الأشعار الكثيرة الجاهلية لصحتها وخلوها من الخطأ اللغوى، واختص بذلك جماعة من الحفاظ والرواة فكبرت منزلة الشعر الجاهلى فى نفوسهم. وكان فى الحق أن يفضلوه على غيره وأن يجعلوه قاموسًا لهم فى العبارة ونموذجًا لهم فى الأسلوب وأن يتحدوا به ما عداه. وكان أكثر علماء اللغة والأدب من علماء الدين، فكثر تمجيدهم للقدماء، وخلطوا الغرض الدينى بالغرض الأدبى، وقالوا لابد من اقتفاء آثار القدماء، وفهموا أن جمال الشعر

القديم مبنى على الاستعارة والتشبيه، فعرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، المبنى على الاستعارة والتشبيه، إلى آخر ما قالوا. وانصرفوا إلى شرح العبارات والألفاظ، وتشاجروا فى حد البلاغة والفصاحة، ولم يتفقوا على شىء اتفاقهم وإجماعهم على تتبع طريقة القدماء. ذلك لأن اهتمامهم بالشعر كان يفوق اهتمامهم بالنثر، إذ احتجاجهم على صحة اللغة والمعانى كان بالشعر لا غير. وكأنهم فهموا أن أكبر مظاهر البلاغة العربية لا تظهر إلا فى الشعر. لذلك لم يكن أثر النثر فى الأدب العربى كأثر الشعر، ولهذا أيضًا كان الشعراء أكثر من الكتاب، وكانت كتب النثر سواء فى النقد أو فى الأدب أقل من كتب الشعر ونقده.

ولعل السبب فى الميل إلى الشعر عند العرب أن الباعث على القول فى بلاغتهم هو الوجدان والخيال، وذلك أكثر ما يكون جولانًا فى ميادين الشعر، إذ النثر أظهر ما يكون فى تقرير الحقائق ورسم النفوس والاجتماع، وذلك ليس من طبيعة العربى فى بلاغته. لأن العربى - كما قلنا فى غير هذا الموضع - مرتجل بطبيعته، ميال إلى البديهة، والارتجال والبديهة لا يصلحان لعمل النثر الجيد المبنى على الفكر والتعقل. ومن هنا قل النثر الأدبى عند العرب فيما يظهر لنا.

مع أن كل اهتمام أدباء العرب كان موجهًا للشعر لا غير، فإن الذى ينظر إلى حالة الشعر العربى لا يجده تغير فى جملته. وما يوجد من الفروق بين الأشعار وطرائقها فى العصور المختلفة أكثره أو كله يرجع إلى الاختلاف فى الأسلوب والديباجة، وإدخال بعض الألفاظ والعبارات التى لم تكن، ثم اختلاف طرق الخيال باختلاف المنظورات: كالفرق بين وصف الصحراء

ووصف البساتين، والفرق بين وصف الأطلال والكلام فى الخمر، وهذا لا يعد من الأطوار الأدبية المعروفة، لأنه مبنى على أصل واحد، وهو تقليد القدماء فى الشعر الوجدانى. فالقديم والحديث من نوع واحد، خصوصًا أن الأدباء والنقاد حددوا الموضوعات وقسموها تقسيمًا نهائيًا، ووضعوا القواعد لمن يأتى بعدهم، وحصروا أنواع الفكر والخيال فيما فكر وتخيل القدماء. وكتب النقد والبلاغة مملوءة بذلك، فلم يكن البحث إلا فى الأسلوب والعبارات، وحسن الديباجة والفصاحة والبلاغة. لذلك قالوا عندما أرادوا أن يتكلموا على أنواع الشعر: من "الشعر الجاف المشتمل على الغريب، ومنه العذب الرقيق السهل، ومنه ما هو (كالفسق المقشر) ومنه ما دخلته ألفاظ إسلامية وما احتوى على ألفاظ فارسية وعبارات اقتضتها الحضارة" وتكاد تكون هذه الملاحظات هى المذاهب الكتابية المعروفة عند العرب(١).

---

(١) كما مدح البحترى ابن الزيات بقوله:

فى نظام من البلاغة ما شـ ـامرؤ أنه نظم فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ الغريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

وكل ما ورد من ذلك يد على العناية بالصناعة لا غير بين القدماء والمحدثين كما ذكر ابن رشيق فى كتابه «العمدة فى نقد الشعر وصناعته» قال فى الكلام على القدماء والمحدثين: «وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذاك وإن خشن» فلم يروا أنه كان للمحدثين شىء من الاختراع أو أثر من البلاغة يستحق العناية، فقد قالوا فى أشعار المولدين: «إنما تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها وحلاوة معانيها وقرب مأخذها... وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام، وإن الخواص فى معرفتها كالعوام، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب، يستميل أمة من الناس إلى استماعه وإن جهل الألحان وكسر الأوزان» (عمدة أول ص ٥٨). =

وهذا دليل على أنهم لم يقدروا الجديد قدره، ولم يقولوا بوجوب (التطور) والانتقال. فإن من عنى بالمحدثين منهم لم ير لهم أثرًا فى غير الصناعة، قال ابن رشيق: "والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان الشعر وإحكام عقد القوافى، وتلاحم الكلام بعضه ببعض" وقال عن المحدثين أيضا " وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد، كالذى يأتى من أشعار حبيب والبحترى وغيرهما، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها. فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعًا وكرهًا، يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة. وأما البحترى فكان أملح صنعة وأحسن مذهبًا فى الكلام، يسلك منه دماثة وسهولة، مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة، وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنعًا من عبد الله بن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر، وهو عندى ألطف أصحابه شعرًا وأكثرهم بديعًا وافتنانًا وأقربهم قوافى وأوزانًا، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب.

= وبلغ من تعصبهم للقديم أن عمر بن العلاء لم يكن يروى شعر المحدثين على ما كان ظاهرًا فيه من الرقة والانسجام قال: لقد حسن هذا المولد حتى همت أن آمر صبياننا بروايته. وكان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين، قال الأصمعى: جلست إليه صمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى. وسئل عن المولد فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو عندهم، ليس النمط واحدًا ترى قطعة ديباج وقطعة مسح وقطعة نطع.

غير أنا لا نجد المبتدئ فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعًا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها، ولأنها أطرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقًا سابلة، وأكثروا منها فى أشعارهما تكثيرًا سهلها عند الناس وجسرهم عليها. على أن مسلمًا أسهل شعرًا من حبيب وأقل تكلفًا، وهو أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة. ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم إلا النبذ اليسيرة، وهو زهير المولدين، كان يبطئ فى صنعته ويجيدها. (عمدة جـ أول صـ ٨٣ - ٨٥)

كل هذا يدل على أن الخلاف لم يكن فى اختراع نوع جديد من أنواع الشعر الذى لم يكن عند العرب القدماء، وإنما هو فى الأسلوب والديباجة والصناعة لا غير . . .[1].

(١) ولا يصح أن تقابل هذه الحركة بحركة القدماء والمحدثين فى فرنسا، لأن الخلاف هناك كان مبنيًا على فكرة فلسفية كما بينا ذلك، وهى فكرة التقدم والارتقاء فى الأفكار والموضوعات وفى لب الكلام. فإن آدابهم كانت مأخوذة عن آداب الأمم الأخرى، فأرادوا أن يجعلوها آدابًا وطنية قومية، على أن يستمدوا الصناعة ومتانة الأسلوب وإمتاع الكلام من الآداب القديمة، وأن ينسجوا على منوالها فى ذلك، وهذا لم يمنعهم من الابتكار والاختراع.

أما الخلاف بين القدماء والمحدثين عند العرب فهو على العكس من ذلك، فإنه ليس فى الموضوعات ولا فى الأفكار ولا فى أصل البلاغة، وإنما هو فى الأسلوب فقط، لأن علماء الأدب والنقاد لم يعترفوا للمحدثين بشىء جديد إلا فى بعض التشبيهات والمعانى المخترعة، أى طرق الخيال التى تقع فى بيت أو بيتين كقول أبى تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وكقول أبى نواس:

بنيت على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم

فلو رد فى كسرى ساسان روحه ... إذن لاصطفانى دون كل نديم

على أن المحدثين أنفسهم لم يقولوا أنهم اقترحوا جديداً، أو جاءوا بنوع لم يكن عند العرب، وكل ما قالوه يرجع إلى الخيال الذى يرجع فى جملته إلى الشعر الوجدانى، ولا يدل على شىء من الأطوار الأدبية. ولا أنبئكم بباب "السرقة فى الشعر" وانتشاره فى كتب النقد، فكم أخذ الأواخر من الأوائل، وكم معنى ابتكره البدوى فأخذه عنه الحضرى المحدث، وغير من لفظه لينسبه إلى نفسه، وباب السرقات طويل جداً يدل على أن المحدثين فى جملتهم لم يخترعوا ولم يبتكروا. قال عبد العزيز الجرجانى فى كتابه "الوساطة":

"والسرق أيدك الله داء قديم، وعيب عتيق، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه، وكان أكثره ظاهر التوارد، الذى صدرنا بذكره الكلام وإن تجاوز ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ. ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلفوا جبر ما فيه من النقص بالزيادة والتأكيد، والتعويض فى حال، والتصريح فى أخرى، والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله .... ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب إلى المعذرة، وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها، وأتى على معظمها، وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها، أو لبعد مطلبها، واعتياص مراميها، وتعذر الوصول إليها. ومتى أجهد أحدنا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً، أو يجد له مثالا يغضى من حسنه، ثم

تصفح عنه الدواوين لم يخطئ أن يجده بعينه، أو يجد له مثلا يغضى من حسنه . . . إلخ" (ص ١٦٦ - ١٦٧).

ومع ذلك فقد لمحوا فى نفوسهم الحاجة إلى التغيير والانتقال. فقال الفرزدق فى شعر عمر بن أبى ربيعة: "هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار" (أغانى أول صـ ٣٦) ولعل هذا أول من شعر بالحاجة إلى شىء جديد فى الشعر قبل مطيع بن إياس، الذى روى خبره صاحب الأغانى قال: "قال مطيع بن إياس جلست أنا ويحيى بن زياد إلى فتى من أهل الكوفة كان ينسب إلى الصبوة ويكتم ذلك. ففاوضناه وأخذنا فى ذكر أشعار العرب ووصفها البيد وما أشبه لك فقال:

لأحسن من بيد يحار بها القطا ومن جيلى طى ووصفكما ساما

تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترعى[1]

كان ذلك فى مدة الأمويين وفى أوائل الدولة العباسية. فلما تربع الفرس فى دولة بنى العباس وعلا شأنهم، أثروا فى كل شىء وأثروا فى الشعر أيضًا. وكان يمكن أن يكون هذا الأثر سببًا لانقلاب عظيم فى تاريخ الشعر العربى، ولكن هذه العاصفة الآرية التى هبت من بلاد الفرس، لم توشك أن تظهر حتى ذهبت هباء فى صحراء العرب، فهزم السامى الآرى لأن الدولة كانت له واللغة لغته والدين دينه، بل لم يكتف الآرى بهذه الهزيمة حتى اندمج فى السامى وأخذ عنه، وبدل أن يؤثر فيه تأثر منه. وهذه من مزايا اللغة العربية فإنها لم تظهر فى أمة من الأمم التى دانت بكتابها الكريم

(١) أغانى جـ ١٢ ص ١٠٢.

إلا أثرت فى عقولها ومعلوماتها، وجذبتهـا إليها ومحت منها خواص لغتها، واستولـت على خيالاتها، وتسـربت إلى لغاتها، واحتلت بحق أو بغـير حق مواضع البلاغة منها، شأن القوى فى الإنسان والحيوان والنبات. وذاك ما تراه حتى الآن فى بـلاد الفرس وفى بلاد التـرك وفى بلاد البربر وفى مـصر. مع ذلك أظهر أثـر الفرس فى الشعـر العربى، فـقد أراد الشعـراء أن يدخلوا فى الشعر العربى أثر المدنية الحديثة، وأن يخـرجوا من مضيق البلاغة وفنون البيان إلى العبـارات النفسية. ولكن هذا التـغير أبعـدهم عن الزمن العربى الأصلى وصبغتـه التى كانت تدل على الإخلاص فى القول وعدم التعـمل والبعد من التكلف، فوقعوا فيما كانوا يخشون، ولم يظهر أثر الحضرى فى الشعر العربى إلا فى نقله من الشـعر المطبـوع إلى الشعر المتكـلف المصنوع. فلم يوجد فـيه شيئًا جديدًا، ولم يبتكر نوعًا حديثًا، وأصبح الشعر صنعة من الصناعات أكثر منه فى كل عـصر. وأخذ الشـعراء يتناسـون ما كـان عند سلفهم من الشـعر الصادر عن الشعور والعواطف إلى التصنع والبحث، لا فى الصناعة لا غير، فى الأفكار والخيال. حتى إن الغـزل والنسيب اللذين أخذا شكلا جديدًا على النفس، مع شىء من الفكاهـة وخفـة الروح مدة الأمـويين، عند جمـيل بن معمر وعـمر بن أبى ربيعة وكثير عـزة، صار إلى نوع من المجون والمزج عند والبة ومن جاراه[1].

(١) وهذا ما يسمـيه بعض المشتغلين بالأدب أطوارًا للشعـر وانتقالا للخيال وشيـئًا جديدًا فى الأدب، أما نحن فلا نسمى ذلك نوعًا جديدًا فى الشـعر العربى، لأن أقدم شعراء العرب وصف الخمر وتكلم فيـها، وأشهرهم أعشى قيس فى قـصيدته الشهيرة التى يشـبب فيها بهريرة قال:

نازعـتهم قـضب الريحـان متكئًـا ... وقـهـوة مـزة راووقـهـا خـضل
لا يسـتـفيـقـون منهـا وهى راهنة ... ألا بهـات وإن علوا وإن نهـلوا =

. . . . . .

= يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل

وقال أيضًا:

فقمنا ولما يصح ديكنا إلى خمرة عند جدادها
فقلت له هذه هاتها بإدماء فى حبل مقتادها
فقام وصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها
كميتًا يكشف عن حمرة إذا خرجت بعد إزبادها
فجال علينا بإبريقه فخضب كفى بفرصادها
فرحنا تنعمنا نشوة تخور بنا بعد قصادها

وتكلم الوليد بن يزيد فى الخمر ووصفها بما لا يقل عن وصف أبى نواس لها فقال:

من قهوة زانها تقادمها فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تخلت ورق جوهرها حتى تبدت فى منظر عجب
فهى بغير المزاج، من شرر وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنها فى زجاجها قبس تذكو ضياء فى عين مرتقب

كما ذكرها الأخطل أيضًا فى شعره. فليست صرخة أبى نواس فى دعوة الشعراء إلى الجديد فى بابها، ولا تعد فى شىء من أطوار الشعر العربى. وكأن أبا نواس حامل لواء المحدثين - لم يجد ما يستحق الاهتمام غير وصف الخمر، فلم يشن هذه الغارة على القدماء لأنه كان يشعر بالحاجة إلى نوع جديد فإنه لم يرد ذلك، بل كان من غرضه نشر مذهبه فى الخمر والفجو، إذ لم يكن لديه أى فكرة أدبية، وكل آرائه التى ذكرها فى هذه الثورة لا تخرج عن رأى واحد كرره مرات فى افتتاح خمرياته.

مثل قوله:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وكقوله:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وكقوله:

تبكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد =

. . . . . .

= لا جف دمع الذى يبكى على حـجر ولا صفا قلب من يـصبو إلى وتد
كم بين ناعت خـمر فى دسـاكرها وبين بـاك على نؤى ومنتـضـد

وكثيـر من قصائده فى الخمـر مبتدأه بمثل ذلك. وكـأنه لم يجد غير ذلك فـى الشعر العربى، مما يدل على أنه كان مـتعصبًا ضد العرب، لأنه أراد أن يفـتح على الشعراء بابًا جديدًا أو يرقى بالشعر. ولما سجنه الخليفة على تهـتكه وإشهاره بشرب الخمر وطلب إليه أن لا يصف الخمر بعد ذلك قال:

أعر شعـرك الأطلال والمنزل القفرا فـقد طالما أزرى به نعـتك الخمـرا
دعـانى إلى نعت الـطلول مـسلط تضـيق ذراعى أن أرد له أمـرًا
فـسـمعـا أمـيـر المؤمنين وطاعـة وإن كنت قد جشمنى مـركبًا وعرًا

ولم يخط ببـال الأدباء إذ ذاك أن أبا نـواس أراد بذلك أن يدعـو إلى نوع جـديد من الشـعر، بل رأوا أن ذلك ليس إلا حنقـا على الطريقـة الأولى: قال ابن رشـيق: "ومن الشـعراء من لا يجـعل لكلامه بسطًا من التـشبـيب بل يهجم على مـا يريده مكافـحة، ويتناوله مصافـحة، وذلك عندهم هو الوثب والبتر والقطع والكسع والاقـتضاب . . إلى أن قال: وزعـموا أن أول من فتح هـذا الباب وفتق هذا المعنى أبو نـواس بقوله: لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند الـخ" نعم كان يدعـوا أبو نواس إلى ترك الأوصـاف القديمـة ووصف المدن والبساتين كما قال:

دع ذا عـدمتك واشـربهـا معـتقـة صفـراء تفرق بين الروح والجـسد
أما رأيت وجوه الأرض قد نضرت وألبـسـتـهـا الزرابى بئـرة الأسـد
حـاك الربيع بهـا وشـيـا وجللهـا بيـانع الزهر من مـثنى ومن وحـد

وهذا كل ما كان يرمى إليه أبو نواس من ترك الرصف للصحراء إلى ذكر آثار الرياض والبسـاتين ومجـالس اللهو، ولم يقـل أنه جاء بشىء جـديد، وكان الأدباء يرون مـيزته وحذاقته فى الصنعة. قال المبرد "ما تعـاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس، فإنه شبب ومدح فى أربعة أبيات فقال:

تقـول غداء البـين إحدى نسـائهم لى الكبد الحرى فـسرو لك الصبر
وقالت إلـى العباس قلـت فمن إذا وما لى عن العباس مـعدى ولا قصر
وهل يكفـلن إلا براحـتـه الندى وهل يزهون إلا بأوصـافـه الشكر

لا نقول إن حركة المحدثين كان نصيبها الخيبة وعدم التمكن من رقى الأدب وإيجاد نوع جديد فيه فقط بل نزيد على ذلك أن المحدثين أبعدوا الشعر العربى عن طريقته الأولى، ومحوا منه خلتين كانتا من أكبر أسباب المتانة والجمال فيه، وهما السذاجة الطبيعية والإخلاص. فقد كان الشعر الجاهلى بهذين الخلتين قريبًا جدًا من الشعر الاجتماعى، الذى يمثل صور النفوس وأخلاق الأمم العامة. ولكن من أسف أن المحدثين زجوا به فى طريق التصنع والتعمل وقصوره على ضرب من البراعة فى الصناعة المتكلفة. وطريقة أبى تمام من المثل المضحكات فى ذلك.

ولو أن حركة الشعر سارت تدريجيًا كحركة النثر لصح القول بأن الشعر العربى تدرج وانتقل، واتبع قانون "النشوء والارتقاء" - كما يقولون - ككل شىء حى - ولكن ذلك أظهر ما يكون فى النثر كما هو معروف. فقد كان النثر فى الجاهلية عبارة عن سجعات قصيرة أشبه بالشعر، من حيث الاستقلال بمعنى تام، ولم يظهر أثره إلا فى الخطب والنصائح، كخطب قيس بن ساعدة وغيره. ثم ارتقى برقى الخطابة فى صدر الإسلام، واتبع وزاد بالمناقشات السياسية بين الخلفاء وعمالهم ومن كان ينازعهم السلطان. وكان أول ظهور ذلك بين أبى بكر وعلى رضى الله عنهما، ثم الإمام على ومعاوية. ولو صحت نسبة نهج البلاغة لابن أبى طالب كرم الله وجهه، لكانت خطوة النثر فى نحو أربعين عامًا أوسع خطوة خطتها بلاغة العرب فى التقدم والارتقاء، لأن الفرق كبير جدًا بين سجع كهان العرب وهذا الكلام البليغ الممتع. ثم أخذ النثر شكلا أوسع فى آخر الدولة الأموية. أما مدة العباسيين فقد ارتقى فيها النثر ارتقاء عظيمًا ليس له مثيل فى عصر من عصور الدولة العربية، إذ

ظهرت فيه المقالات الطويلة فى موضوعات مـختلفة. وأشهر الكتاب والمؤلفين فى ذلك العـصر: الجـاحظ وابن المقـفع، وكان لكل مـنهمـا مذهب خـاص وطريقة معـروفة فى الأسلوب. ولم يعد النثر منذ ذلك الزمن مـقصوراً على الخطب والرسائل. ثم انتقل إلى درجة أخـرى، وهى طريقة السجع والصناعة فى تحسـين العبارة. كمـا فى طريقة ابن العمـيد، والصاحب بن عـباد وبديع الزمان الهمـذانى، الذى اخترع فن المقامات، وأخـذها عنه الحريرى. وبذلك أخذ النثر طريقًا آخر وأسلوبًا جديداً يصح أن يطلق عليه من بعض الوجوه أنه نثر قصصى.

ذكـرنا هذا لنبين مـعنى الأطوار الأدبيـة وكيف تتـحول وتتـوالد أنواع البلاغة. وقد اخـترنا أن نضرب مثلا بالنثر العربى لوضوحـه وضوحًا تامًا لا يوجد فى الشعر.

والكلام يحـتـاج إلى توسع نرجـو أن نوفق لدراسـته دراسـة تامـة فى المستقبل إن شاء الله.

* * *